ونزفت الشمس ليلاً !

ليليات

معًا إلى الأبد في نعيم الجحيم

ضجر طائر الموت من لعبة خلع الروح عن الجسد ، وفي لحظة ملل غير قواعدها . . واختار رجلا وحلق حوله . . واحترم حياته واحتقر نهاره . . وتسلل تحت جلده واستوطن في دمائه وفتح الرجل عينيه ورأى الشمس تنزف ليلا ، وفتح أذنيه فسمع رنين العدم وفتح فمه فتصاعدت منه الظلمات ، وانتشرت حوله وحاصرته . . فمات في جلده . . فمات طائر الموت من الضحك وتمادى في اللعب .

بعد سنة من زواجه بدأ تولستوي في كتابة رائعته « الحرب والسلام » . . وفي دنيا الخيال نسي واقعه . . وبانشغاله في توزيع مشاعره المتناقضة على أبطاله ، استعاد وحدته وبالتالي توازنه . . وعاش مع سونيا في حب وسلام فلا وقت لديهما للمناكفات والمناقرات . . فهو مشغول بتسويد الورق . . وهي مشغولة بتبييض سوداته . . وعلى مدى ست سنوات أنجب تولستوي خمسمائة شخصية في الف صفحة في حين أنجبت سونيا بنتا وولدين . . كما ذكرت في الأسبوع الماضي .

رحلة في كوكب الموت

وفي ربيع ١٨٦٩ سلم تولستوي قصته إلى الناشر . . وتجمد مصير أبطاله في قوالب من رصاص ، وفقد سلطانه عليهم بعد تصحيح البروفات . . وحانت لحظة الفراق . . وقطع بنفسه الحبل السري الذي كان يربطه بهم . . وتركهم يتطلقون في العالم في ثوب من حروف وكلمات تلتهمهم العيون وتنهال عليهم كلمات الإعجاب .

وجمعت سونيا كل المقالات التي كتبها النقاد عن الحرب والسلام « وقدمتها له . . فرفض أن يقرأها وقال لها : « النقاد أزعجوا بوشكين وضايقوه من الأفضل تجاهلهم . . فاعفيني من لفحات الذم ونفحات المدح » .

ومنح تولستوي فكره إجازة ولادة ، فقد جف حبر قلمه وفقد دمه الكلمة . واستقل مع عينيه زورق القراءة وقاده التيار إلى بحار الفكر الأناني . . وقرأ مؤلفات « كانت » ثم شوبنهاور الذي لم يكن معروفا بعد في روسيا . . وأعجب بفلسفة شوبنهاور وسخريته المريرة وتشاؤمه العنيف . . هذا إلى حد أن فكر وهله في ترجمة مؤلفاته إلى الروسية ثم اكتفى بشراء صورة له وتعليقها فوق مكتبه .

وقاده التشاؤم الفلسفي إلى أن يحلق بخواطره في كوكب الموت فاصطدمت مركبته الفكرية بألغاز الموت وتحطمت فسقط جريحا على أرض الحياة . . وانتابه الفزع . . إن الموت يحوم حوله ويتحداه منذ نعومة أظافره . . خطف منه أمه ثم أباه ثم منذ عشر سنوات شقيقه وأخيرا جاء الدكتور بيرز وبعض شخصيات روايته وعلى رأسهم الأمير أندريه الذي وضع فيه الكثير من نفسه . . والآن جاء دوره ليعانقه الموت . إنه لا يهدئ . . فمنذ فترة والموت يزوره من آن لآن ويداعبه بمباجة ومخاقة .

وعند كل زيارة له يشم عطره الحليدي ويسمع دبيبه النعالي ولا يراه . . انما يحس به وهو يخنق أنفاسه إلى أن يهرب منه دمه ويلتصق عظمه بلحمه وهو يتشبث بالحياة بأسنانه وأظافره . . وربما لو كان مريضا أو تعبا أو يائسا لاستسلم راضيا للموت . . ولكنه يتمتع بكامل صحته وعافيته ويريد أن يستمتع بمجده الأدبي وبسونيا وأطفاله وكلابه وخيوله وأرضه وأشجاره .

وقرأ في إعلان في احدى الجرائد عن ضيعة للبيع في « بترا » التي تبعد حوالي ثمانمائة كيلو متر : من عزبته . . وقرر أن يتوجه إلى هناك ليعاين الأرض بنفسه ويشتريها لعل ييأس منه الموت ويخل عن كتفيه حينما تمتد جذوره أبعد فأبعد في أرض الأحياء . .

واستقل القطار إلى موسكو ومنها إلى تيجني – نوفجورود حيث وصل صباح يوم ٢ سبتمبر ١٨٦٩ . ثم استأجر عربة خيل لمواصلة رحلته فما زال امامه ثلاثمائة وخمسون كيلو مترا ليصل إلى بترا . وكان في صحبته خادمه المفضل سرج أريوزوف . . وطوال النهار ظل محتفظا بمرحه وحيويته يتحدث ويضحك مع خادمه . ثم مع غروب الشمس اغربت بشاشته فجأة . وزحف عليه القلق بمدرعاته ومصفحاته وأسره . . ثم رماه وراء أسوار سجن الكآبة . . فطلب النجدة من الأفق . . فتجاهله الأفق ، فالشمس تلفظ آخر أنفاسها وتودعه بأشعتها . وعليه أن يخلف عليها آلام الفراق . . وزحف الليل على الأشجار وحوضا إلى أشباح ، فترنحت خواطره وسقطت في سواد الليل . . واقتربت العربة من مدينة « أرزامامس » فقرر أن يمضي فيها الليل .

وعثر على فندق ميت بلا صوت ولا حركة عدا سيمفونية شخير البواب التي تتصاعد أنغامها من البهو . . وبينما كان خادمه يوقظ البواب لاحظ تولستوي أن على خده شامة سوداء فازداد تشاؤمه . . وقاده البواب الى حجرة بيضاء ومربعة أبوابها وستائرها حمراء وجدرانها أيضا مغطاة في الخزه الأسفل منها بخشب لونه أحمر داكن كالدم المجمد . . ويتوسط الحجرة ديوان كبير بحواره مائدة عليها شمعدان محتضران .

وطلب تولستوي من خادمه أن يحضر له فنجان شاي وتمدد على الديوان ووضع تحت خده وسادة صغيرة مكسوة بالحرير ومحشوة بريش النعام حرصت سونيا على أن تضعها بين متاعه ليركع فيها خده ويدفن فيها هموم رأسه وغلبه النعاس فأغمض عينيه . وسمع خادمه وهو ينادي ليتناول الشاي فتظاهر بالنوم . . فلا رغبة له في أن ينهض ويفتح فمه ويتكلم ويشرب . . ويخر رأسه في الوسادة ويستسلم للنوم .

بعد قليل استيقظ وسط حجرة سوداء خاوية مجهولة تفوح منها رائحة الشموع الميتة وأحس به وراءه . . فوقف شعر رأسه وقفز يفزع من الديوان وجرى مهرولا خارج الحجرة . . ووجد خادمه نائما في الممر والى جواره البواب ذو الشامة السوداء . . فتوقع حدوث كارثة سوداء . . وانهالت الأسئلة على رأسه كسرب من الغربان . . أين هو ؟ . . ما الذي جاء به الى هنا ؟ . . لماذا هو خائف ؟ . . لماذا يهرب ؟ . . ومن يهرب ؟ . .

وعاد الى حجرته وسرب الغربان ينقر في رأسه . . وسمع صوتا يقول له : « أنا الموت ! . . أنت تهرب مني ! . . أنا معك هنا . . » . فتسمر تولستوي في مكانه . . وتسمر الزمان في المكان . . ونزفت الشمس ليلا ، وسقط النهار في الهاوية وحاصرته الظلمات . . وبآخر رمق من حياته حرث بعينيه الظلمات فاحترقت نظراته وسالت الدموع في عروقه . . ففتح فمه ليصرخ فتسلل الموت إلى حلقه وغرس جذوره في دمه . . فتجمد دمه . . وسيطر عليه رعب هندسي أبيض وأحمر ومربع . . فما الحجرة سوى نعش حجمه كبير .

وهرب من نعشه إلى الممر . . استمع إلى أنفاس النوم الرتيبة للخادم والبواب ، وجن من لا مبالاتهما . . كيف يمكنهما أن يناما والموت هنا معهما ؟ . . السفينة تغرق وهما يشخران .

ثم شيئا فشيئا سيطر على رعبه الهندسي وعاد إلى حجرته وفي الظلام جثا على ركبتيه وصلى كما لم يصل في حياته . . فلم يرحمه الموت واقترب منه ولمس كتفه من الخلف . فتحول تولستوي إلى تمثال من جبس وأصمت . . فاحترم الموت حياته وأكتفى فقط بمداعبته . . فقد فجر من إزهاق الأرواح ويريد فقط أن يتسلى ويمتع عينيه برعب هذا الحي منه . .

ولما شبع الموت تسلية ترك تولستوي . . وذهب لمباشرة أعماله في أنحاء العالم ، ونسي أن يضع بين شفتيه سيجارا ككل رجال الأعمال وشيئا فشيئا دبت الحياة في التمثال وجرى الدم في شرايينه وجرى بخطوات غير الى خادمه وافترس نومه وأمره باعداد عربة الخيل فورا . . ثم عاد إلى حجرته وارتمى على الديوان بإعياء فتناثر حوله الجبس والأصمت . . واغمض عينيه ونام . . فلم يجرؤ خادمه على إيقاظه وفي الصباح حينما فتح عينيه ابتسمت له الشمس بكل أشعتها فتلفتت الحجرة رعبا الهندسي وشك في أن يكون الموت قد زاره في هذه الحجرة البيضاء الحمراء المربعة . . وكتب رسالة إلى سونيا يروي فيها لقاءه مع الموت في « أرزامامس » .

واستقل في نفس اليوم عربة الخيل مع خادمه وواصل رحلته وبين يديه الأمل وتحت قدميه اليأس . . قراره الموت من جديد زيارة خاطفة ثم تركه والقلق بين يديه وبين شفتيه وبين جفونه وبين ضلوعه وفي مسام جلده وفي كريات دمه وفي خلايا مخه وتحت أسنانه وتحت أظافره . . وعند وصوله إلى « بترا » زار الضيعة المعروضة للبيع ورغم جمالها وجد أن أرضها وأشجارها وحقولها ومروجها ومياهها وسواقيها ، وهواءها ومياهها في لون الرماد . . ففي فمه طعم . . الرماد .

وظل يمضغ في الرماد حتى عودته إلى « ياسنايا بوليانا » إلى عزبته . . ولم يحس بالاطمئنان الا حينما ارتمت سونيا بين أحضانه والتف حوله أطفاله الأربعة .

وبعد أيام قليلة بلغه خبر وفاة صديقه الناقد الأدبي فاسيلي بوتكين . أثناء حفل موسيقي أقامه في بيته يوم ٤ أكتوبر ، وحضره مالا يقل عن مائة مدعو . أليس عجيبا كل هذه الاستعدادات والدعوات والزهور والفودكا والكافيار والفرقة الموسيقية ثم . . الهاوية ؟ . .

وها يا ترى كيف سيموت ؟ . وتصفح تولستوى أوراقه . ووجد هذه السطور التى كتبها منذ أربع سنوات فى ٤ ديسمبر ١٨٧٥ :

« كنت أنتظر أناسا أحبهم . . جاءوا جميعا ولم يعتذر أحد . . أمضيت معهم يوما ممتعا . . كنت سعيدا بهم ومعهم . . وفى المساء نمت . . وبينما أنا بين النعاس والنوم فى هذه الحالة التى تتحدث فيها النفس بهدوء وصفاء . أحسست أن نفسى تريد شيئا وتصبو إليه بقوة . . فتعجبت من نفسى وسألت بدهشة : « ماذا أريد ؟ » !

أصدقائى جاءوا : وانتعشت . . أليس هذا ماكنت بحاجة إليه لأستعيد هدوئى !

لا ليس هذا . . ماذا إذن ؟ واستعرضت كل شىء . .

ولكن هذه الرغبة ظلت كما هى تلح علىّ بإصرار وعناد . . أريد شيئا لا وجود له فى هذه الدنيا . . ولكن ما دمت أرغب فى شىء فلابد من وجوده فى مكان ما . . أين ؟ . . فى العالم الآخر أن أموت . . هذا هو الهدوء الذى أنشده وننشده جميعا . .

فبالأمس فقط كان ينشد الموت واليوم يخشاه . . ولا داعى للتعجب . . فهذه هى هى طبيعة الإنسان ، يضع دائما الأمل فى خوفه والخوف فى أمله . . ومن الآن فصاعدا عليه أن يعيش كجريح أطلقت عليه رصاصة لا أمل فى استخراجها . . والرصاصة هنا فى رأسه . . من المستحيل أن ينساها ، ومع هذا فهو لا يكاد يحس بها .

كلنا هذا الكذاب

وجاء الشتاء وحاصر الجليد البيت . . واجتمع شمل العائلة حول نار المدفأة . . واحترق قلق تولستوى ، وعادت إليه ثقته فى مستقبله على أرض الأحياء . . وأعاد قراءة مسرحيات جوته وموليير وبوشكين وجوجول ، وأبطأ شكسبير رغم أنه لا يحبه . . وفكر فى كتابة مسرحية تدور – أحداثها فى عصر بطرس الأكبر ، ثم وجد أنه يرتاح أكثر إلى قالب الرواية . . وأحضر من موسكو المراجع التاريخية التى يحتاج إليها ، وقرأ بعضها ، ورسم الخطوط العامة لقصته ، وبعض ملامح شخصياته ، وكتب فصلا منها .

ثم ظهرت شمس الربيع ، فتركَ أوراقه وقلمه ، وحمل الفأس فوق كتفه ، وزرع وحرث وحصد مع فلاحيه . . وتجاهل الأدب والتاريخ والسياسة والحرب الدائرة بين فرنسا وبروسيا . . لادخل له بالعالم وأحداثه . . دنياه أرضه والفلاحون . . هؤلاء الفلاحون الطيبون الذين يعانون من الجوع والفقر ، ويمشون حفاة على أرضه وتتشقق أقدامهم من أجله .

بينما هو وأسرته يأكلون الزبد الأصفر ، والخبز المذهب والكرنب الوردى واللحم المشوى . . وفى الغيط تشق الفلاحات تحت نار الشمس ويتصبب عرقهن . . وفى حديقة بيته تجلس سونيا تحت ظل الشجرة فى فستان من الموسلين ، وحولها أطفالها فى أزياء من الحرير . . وثار على نفسه ، وانفجر فى سونيا . . وظنت لأول وهلة أن الموت بداعبه من جديد فهدأت من روعه . . وقالت له بحكمة الغريقة : « أنسيت قول فيلسوفك المفضل أبيقور : الموت لاشئ . . لا بالنسبة للأحياء مادامو أحياء . . ولابالنسبة للأموات مادامو أمواتا » . . .

فأفحمته بمنطقها الأبيقورى . . وفتش غليله فى يومياته وكتب : « ١٠ أغسطس ١٨٧٠ : طالما يوجد رجال على الأرض ، فستظل عبارة « الملكية هى السرقة » حقيقية وحقيقية مطلقة وهذه الحقيقة المطلقة تتفرع منها عدة حقائق نسبية وعلى رأس هذه الحقائق النسبية حقيقة تتعلق برأى الشعب الروسى فى الملكية . . إن الشعب الروسى يستنكر الملكية غير المرتبطة بالعمل ، أى الملكية العقارية . . والثورة الروسية ستقوم على أساس هذه الفكرة . . فالثورة الروسية لن توجه ضد الامبراطور والطغيان إنما ضد الاقطاع والملكية العقارية .

وبعد أن كتب هذه السطور ، أحس تولستوى براحة . . هذا الى حد أنه فى يوم ١٣ أغسطس أى بعد ثلاثة أيام فقط . اشترى فى قرية تليا تينكى قطعة أرض مساحتها ٣٠ هكتارا بمبلغ ٢٨٠ روبل أى ما يوازى اليوم بنقدنا ٣٣٦ جنيها مصريا . فمن ثار ضد الاقطاع والملكية وتمنى قيام جمهورية اشتراكية تكون فيها الأرض للجميع اشترى قطعة أرض ليزداد عدد فدادينه . . ولاغرابة فى ذلك .

فالانسان فى كل زمان ومكان يحب أن يوسع من أملاكه ويزيد من ثروته ، ليعيش فى فخفخة وبلهنية كى يتحسر أكثر وأكثر على حال الفقراء من البشر ، ويلسعه الندم ويهب للدفاع عنهم بالكلام ، ثم ينام على وسادة من ريش النعام ويحلم باليوم الذى تسود فيه الدنيا العدالة الاجتماعية ولكن ليس كل انسان فى صدق تولستوى . . فبعد أيام ليريح ضميره كتب هذه العبارة :

« كل أنسان يكذب عشرين مرة فى اليوم »

دموع البصل الشاعرية ؟

وبارکت سونيا عودة الأمطار التى أرغمت زوجها على العودة إلى مكتبه . . فهى تريد أن تعيش من جديد « سنوات الحرب والسلام » والخلق والعمل الجاد . . وظنت وهلة أن رغبتها تحققت . . وكتبت إلى أخيها فى شهر نوفمبر : « ليون يجلس طوال النهار أمام تل من الكتب ، يقرأ ثم يقطب حاجبيه ويفكر ، ثم يسجل ملحوظاته وخطواطره . . وفى المساء بعد أن ينام الأطفال يحكى لى ما يريد أن يكتبه . . إن عصر بطرس الأكبر يشده أكثر وأكثر . . ويبدو لى أنه ينوى كتابه ملحمة على غرار « الحرب والسلام » .

ولكن سرعان ماخاب ظنها . . فقد أدار تولستوى ظهره لبطرس الأكبر وعصره ومعاصريه . . فهو لايحس بهم ولاينفعل بهم . . وفى رأسه تتوالد الأفكار وتتكاثر وتنمو ، ثم تصطدم بشكوكه فى نفسه . وتموت . . إنه فقد الثقة فى قدرته على العمل والخلق . ورغما لن يكتب شيئا بعد اليوم . . أو ربما تكون هذه الفترة هى فترة العمل الداخلى ، فترة الحمل الذى يسبق الولادة .

ووقفت سونيا أمام باب مكتبه تدعو له بالانعام ، وتنتظر منه المسودات . . ومرت الأيام ، وعدت شعر رأسها ، وطقطقت أصابعها ، وقرضت أظافرها ، وفقدت صبرها . . فبدلا من أن يسلم لها أول فصل من روايته ، أخبرها بأنه قرر أن يتعلم اللغة اليونانية . . فشدت شعرها وعدت نجوم السماء . . وحاولت أن تثنيه عن بدعته الجديدة ، وأخفقت .

وأحضر تولستوى مدرسا من موسكو ليعلمه قواعد لغة هوميروس : وفى بضعة أسابيع تفوق التلميذ أبو الاثنين والأربعين سنة على أستاذه . . وقرأ « تاريخ الاغريق » لاكسنوفون . . وأنشد لسونيا أشعار هوميروس ، فلم تفهم شيئا ، وطلبت منه أن يعلمها كيف تكتب كلمة « بصل » وتنشر حروفها لتبكى طوال النهار على خيبة أملها . . فاشترى لها دستة مناديل يونانية وتركها مع دموعها ليكتشف أفلاطون من جديد . . ووجد أن النصوص الأصلية كماء الينبوع فيها صفاء ونقاء ، فى حين أن النصوص المترجمة . . . « كالماء المغلى والمقطر » لاطعم لها ولانكهة .

وفى منامه كان يرى نفسه فى أثينا ، يتجول فى شوارعها مع أفلاطون وسقراط ، وفى يده مقص المثال فيدياس . . وفى يقظته كان يتحف سونيا بحكمته الاغريقية ويقول لها : « أن أكتب أمر سهل وهين ، الصعوبة فى الا أكتب . . . لن أكتب بعد اليوم قصة محشوة بالكلام الفارغ والهذر والثرثرة « كالحرب والسلام » . . أحلم بكتابة عمل كالروائع الأغريقية القديمة عميق وبسيط ورشيق وأنيق . وياحبذا لو كتبته باليونانية » . . فكانت تجرى سونيا إلى المطبخ وتنشر كل مافيه من بصل .

وأرهقت المذاكرة صحة وأعصاب التلميذ . . وانتابته نوبات يأس وقنوط ، ودار رأسه وداخ ، وفقد شهيته للطعام ، وتعرض لحالات فى وغثيان ، وأحس بآلام فى ظهره . . باختصار ظهرت عليه كل أعراض الحمل ، رغم أن سونيا هى التى كانت حاملا فى طفلها الخامس ، لاهو .

ويوم ١٢ فبراير ١٨٧١ أنجبت سونيا بعد ولادة عسرة بنتا سميت « مارى » . . وبعد ثلاثة أيام اعترتها قشعريرة ، وارتفعت درجة حرارتها ، وأصيبت بحمى النفاس . . وظلت فترة معلقة بين الحياة والموت . وتجاوزت سرعة نبضها مائة وعشرين نبضة فى الدقيقة الواحدة . . وكلما انتابتها نوبة رعشة ، ارتعش تولستوى معها خوفا عليها من الموت . . ثم انخفضت درجة حرارتها ، وتركت الفراش . فاطمأن عليها تولستوى ، وتفرغ همومه الصحية من سعال . وآلام روماتيزمية فى ركبته ، وطنين فى أذنه ، وصداع فى رأسه . وأرق مصحوب بليال بيضاء .

وظن أبو الأوهام الموسوس أن الموت تسلل إلى خلاياه ، وأنه مصاب بمرض خطير لا أمل فى الشفاء منه . . وكتب فى رسالة إلى صديقه الأديب والمحامى أوراسوف : « أنا مريض ولكنى لا أعرف ما عندى . . ومن منا يعرف الشكل الذى يتخذه الموت للقضاء عليه . .

ربما كان صداعا أو سعالا أو طنينا فى الأذن . . الله اعلم . . كل ما اعرفه أننى من شدة خوف وحزن وكرق فقدت الرغبة فى الحياة . . . . »

والموت يكره الحياة ، والحياة تكره الموت . . حقيقة لاجدال فيها . . واعتقادا منه أنه يحمل الموت فى جسده كره تولستوى سونيا لكونها تحمل الحياة وتلدها وعاملها ببرود . . فعاملته بالمثل . . وتجمدت علاقتهما وصارت فى جمود الموت . . . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .